الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿واجْعَلْ لي وَزيراً من أهلي﴾[1] فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة فقال: ﴿اشدُدْ به أزري * وأشْرِكْهُ في أمري﴾[2] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة. ثم قال: ﴿نسبِّحَك كثيراً * ونذكُرَكَ كثيراً﴾[3] دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحد الشفار[4] إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبيٍّ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان[5]: بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه[6] عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه، والمعصوم مَنْ عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة، ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال له هامان: بينما أنت إلٰه تُعبد، إذ صرت تعبد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبئس القرناء، شر قرين لشر خدين. وأشرف منازل الآدميين النبوة، ثم الخلافة ثم الوزارة. وفي الأمثال: نِعْمَ الظهير الوزير، وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوة تمييزه، وجودة عقله، في انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدلك على كماله، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه. وكان يقال: حلية الملوك، وزينتهم وزراؤهم. وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان. وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل مَلِكٌ إلا ومعه رجل حكيم، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، في كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة. فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه. ومَثَلُ الملك الخير، والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً، وإلى الماء محتاجاً. ومَثَلُ السلطان كمَثَلِ الطبيب، ومثَلُ الرعية كمَثَلِ المرضى، ومَثَلُ الوزير كمَثَل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقيض

---

(١) سورة: طه، الآية: ٢٩.
(٢) سورة: طه، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢.
(٣) سورة: طه، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.
(٤) أحد الشفار: حد السيف.
(٥) بطانتان: الحاشية.
(٦) تحضّه: تدفعه.

دائه، فإذا سقاه الطبيب على وصفة السفير هلك العليل. كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه، عدلاً في دينه، مأموناً في أخلاقه، بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة. وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيماً، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل. ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء، وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يـــا ملكـــاً طـــاعتـــه لازمَـــهْ وحبـــــه مفتـــــرض واجـــــبُ
إنَّ الـــذي شـــرفـــت مـــن أجلـــه يـــزعـــم هـــذا أنَّـــه كـــاذبُ

وأشار إلى الذمي، فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إليّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى: إنك لست بإله وأنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: ارحَمْ من في الأرض يرحَمْك من في السماء. وفي الثالثة: أقضِ بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء، سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير فنَمْ ولا تخش الأمير. ومثل السلطان كالدار، والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها انزعج، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصرة، فكما أن مَنْ لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير: لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم.

واعلم: أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهها إلا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها ونقائها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فَهْمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.